

منهجية المجادلة في القرآن الكريم

د. أبكر عبد البنات آدم (*)

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلي تعرف منهجية المجادلة في القرآن الكريم، فتنبأ بمقدمة عن تاريخ نشأة علم الجدل منذ الأمم الغابرة كما أورده القرآن الكريم، ثم تقسمه إلى قسمين: الأول منهما جدل نزيه بالحسنى يهدف لإحقاق الحق، والآخر فاحش منموم يتسم بالكبر وإنكار الحقائق حتى الحقيقة الكبرى التي هي وجوده تعالى وعظيم قدرته. فالأول هو جدل القرآن الكريم وجدل المؤمنين الصالحين عامة؛ والآخر جدل الفلاسفة الملحدين الذي يهدف لحمل الآخرين علي آرائهم فيلجأ للمغالطات وربما إلى الطعن والسباب والافتراء والتضليل.

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمقارن، وقسم بحثه إلى خمسة فصول؛ أولها معنى كلمة الجدل والمجادلة لغة واصطلاحاً، وثانيها نشأة علم الجدل، والثالث الجدل عند الفلاسفة، والرابع الجدل في القرآن الكريم، والخامس أساليب الجدل ووسائله التي ينبغي أن يلتزمها الداعية للوصول إلى أهدافه النبيلة. وختم الباحث بخاتمة لخصت باختصار محتوى البحث وأهم نتائجه.

(*) أستاذ مشارك- نائب عميد كلية الآداب- جامعة بحري- الخرطوم - السودان.

Abstract

This study aims at introducing the reader to the method of debate in the glorious Quran. It begins with an introduction to the origination of debate from the earliest generations of humanity as mentioned in the glorious Quran; then discusses its two types; namely the fair, impartial debate that is neither biased nor prejudiced; and, on the other hand, the in-preferable, prejudiced debate characterized by pride and the denial of plain facts, even the greatest fact: the existence and glory of Almighty Allah. The first is the kind of debate adopted by the glorious Quran and by the righteous believers, while the other is adopted by disbelieving philosophers, whose sole aim is but making others adopt what they believe; and they will for that purpose resort to fallacies, even to insults and delusion.

The researcher used the descriptive analytical and comparative methods. He divided his study into five chapters and a conclusion. The first chapter discusses the meaning of debate lexically and technically; the second tackles the origination of debate; the third explains the disbelieving philosophers' methods of debate; while the fourth demonstrates Quran's method. The fifth chapter elaborates on

the best ways of debate that a believer and propagator should adopt to realize their noble objectives. The conclusion gives a summary of the research and its most important results.

مقدمة:

كثيراً ما ينحو الإنسان إلى المجادلة إما مكابراً أو مغالطاً أو رغبة في الإنتصار أو إحقاقاً للحق أو إبطالاً للباطل. وقد تحدث القرآن الكريم عن منهجية الجدل أو المجادلة ووضع لها الأسس والقواعد سواءً في المناظرة أو المحاوره، ومن هذا المنطلق قسم العلماء الجدل إلى قسمين، جدل لإحقاف الحق ونصرتة عن طريق البيان أو تقديم الحجة الموضوعية والمنطقية، وجدل للمغالطة دون علم ومعرفة وهذا ما يسمى بالجدل المزموم كجدال الكفار للأنبياء والمرسلين.

فعلى الداعي أن يحسن الحوار والمجادلة في دعوته حتى يجد القبول والطمأنينة عند نفوس الآخرين فالجدال بالحسنى من أسمى سمات الدعوة، وهو أسلوب من أساليب المنهج العلمي، وبه يستطيع مرسل الرسالة أن يدحض الحجة بالإقناع والدليل المنطقي. وهنا يتطلب من المجادل أن يحسن علمه ولغته ومهاراته. وقد تنتوع صور المجادلة بين الطرفين كما في قصة خولة بنت ثعلبة التي أعطها المولى عز وجل حقها لترسم للذين يتأتون من بعدها حقاً في المحاوره والمجادلة في كل الأمور الحيوية المختلفة. فالأصل في المجادلة أن تكون بالتي هي أحسن، وأن يستخدم المنهج العلمي لدرء الخصوم، وإثبات الحق، وإزهاق الباطل، بالطريقة التي تتناسب ومخاطبة العقل والوجدان بعيداً عن القسوة والشدّة والاعتداء.

مشكلة الدراسة: تكمن مشكلة الدراسة في الآتي:

* غياب التوافق التام بين المسلمين أدى إلى ظهور مدارس جدلية متناقضة خارجة

عن المنهج الإلهي.

* عدم مراعاة المسلمين للمنهجية العلمية والمعرفية التي صاغها القرآن الكريم في المجادلة والتي هي أحسن.

* ابتعاد المسلمين عن القيم الموضوعية في مجادلة الآخرين.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في الآتي:

* معرفة المنهجية العلمية التي استخدمها القرآن الكريم في المخاطبة والمجادلة والحوار.

* الكشف عن أهمية المجادلة في تحقيق أهداف الدعوة إلى الله عزوجل.

* التأكيد بأن الأصل في المجادلة أن تكون والتي هي أحسن، وما عداها باطل.

* بيان أقسام المجادلة وأدواتها، وموقف الفلاسفة منها كأسلوب من أساليب التعبير والتفكير.

* معالجة المفاهيم المتناقضة عند الفلاسفة حول مفهومي الجدل والمجادلة.

* بيان منهج القرآن الكريم في المجادلة والمحاورة.

أهداف الدراسة: سعت الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

* أن تكون غاية المجادلة لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

* احترام القانون الإلهي في صياغة أدوات المجادلة.

* التأسي بشمائل رسول الله ﷺ وصفاته في جدال المنافقين وحوارهم، والكفار

واليهود في صدر الدولة الإسلامية من خلال آيات الأحكام.

* التأكيد بأن العلم والمعرفة يمثلان إحدى أساليب المجادلة الموضوعية والمنطقية.

منهجية الدراسة: استخدم الباحث المنهج الوصفي والتحليلي، وأحياناً المقارن

للوصول إلى أفضل الخيارات في معرفة المنهجية العلمية التي دعا إليها القرآن الكريم في

مخاطبة العقل باستخدام أساليب المجادلة لتحقيق حقيقة الاستخلاف في الأرض بعيداً عن

نوازع الأهواء والأنفس.

خطة الدراسة: اقتضت طبيعة الدراسة وأهميتها تقسيمها إلى المباحث التالية:

* **المبحث الأول:** مفهوم الجدل والمجادلة لغة واصطلاحاً.

* **المبحث الثاني:** نشأة علم الجدل.

* **المبحث الثالث:** الجدل عند الفلاسفة.

* **المبحث الرابع:** الجدل في القرآن الكريم.

* **المبحث الخامس:** أساليب الجدل.

المبحث الأول

مفهوم الجدل والمجادلة لغة واصطلاحاً

لغة: جاء في مختار القاموس : لفظ جدل، جادل، مجادلة، أى خصمه خصماً شديداً، والجدل هو دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو بشبهة، والمجادلة مصدر جادل، ويعرفه العلماء بالمنظرة والمحاورة والمناقشة والمقابلة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم^(١).

فالمجادلة أو الجدل: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمقابلة وأصله من جدلت الحبل أى أحكمت قتله، وجدلت البناء أى أحكمته، وقيل الأصل فى الجدل الصراع^(٢). ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً: أى غلبته^(٣).

اصطلاحاً: عرف أبو زهرة الجدل "بأنه إلزام الخصم، والتغلب عليه فى مقام الاستدلال"^(٤). ونكر أبوبكر الرازى "أنه مقابلة الأدلة لظهور أرجحها"^(٥) فالجدل والجدال هو الخصومة والمنازعة فى البيان والكلام لإلزام أرجحها وإبطال مدعاها،

(١) الزاوي، الطاهر أحمد (1989م). مختار القاموس. دار الكتب العربية، القاهرة، ط1 ص275.

(٢) الأصفهاني، راغب (1961م). المفردات فى غريب القرآن. مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط2 ص89.

(٣) ابن منظور (1994م). لسنن العرب. دار صادر، بيروت، ط1 ص103.

(٤) أبو زهرة، محمد (1980م). تاريخ الجدل. دار الفكر العربي. القاهرة، ط1 ص5.

(٥) أبو بكر الرازى، محمد (1950م). المصباح المنير. مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط2 ص102.

وإثبات دعوى المتكلم إما صواباً وأما خطأ^(١). وفي اصطلاح العلماء هو: "المقاومة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم". وقد ذكر الجرجاني في تعريفاته: "بأنه عبارة عن مرآة يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها" ثم قال: "الجدل هو القياس المؤلف من المشهودات والمسلمات، والغرض منها إلزام الخصم وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان"^(٢). ويقول أبو البقاء في كليته: "الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو بشبهة"^(٣). وفي مجمل القول يرى الباحث أن الجدل يجب أن يبنى على الدليل والبرهان لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

فالجدل قسمان:

* الجدل بالحسنى: هو الجدل النزيه الذي يعبر عن الصدق بعيداً عن المغالطة والمكابرة^(٥)، وهناك من العلماء من أطلق على هذا النوع من الجدل (بالممدوح) وهو الذي يهدف إلى إحفاق الحق، ونصرته بالموعظة الحسنة، لذا جاء الأمر به في القرآن الكريم أن يكون بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فُوقُوا أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجَدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٦) وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

(١) الألمعي، زاهر عوض (ب ت) مناهج الجدل في القرآن الكريم. مطبع قرزوق التجارية، القاهرة، ط1، ص20.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد (1998م). التعريفات. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1ص102.

(٣) أبو البقاء (ب ت). الكليات. دار الجبل، بيروت، ط1ص145.

(٤) سورة القصص: 50.

(٥) الطويل، توفيق (1945). تاريخ الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى. دار العلم، بيروت، ط2ص99.

(٦) سورة العنكبوت: 46.

وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١﴾^(١)،
 وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

* الجدل الفاحش: وهو الذي لا يهدف إلى إحقاق الحق، ولم يسلم أسلوبه من التكبر، ولن يؤدي إلى الخير، وبعبارة أخرى يسمى (بالمذموم) لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٣)، يقول ابن كثير: "أى بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح بل بمجرد الرأي والهوى".^(٤) فالمجادلة بالحسنى تجد القبول عند المدعويين وتؤدي إلى إزالة الغموض واللبس لأنها طب القلوب ودواءها، فكثيراً ماتدحض حجج الخصوم^(٥). أما جدال المذمومين فهو الذي يقوم على إنكار عظمة الله عز وجل، كإنكار بني إسرائيل على موسى (عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٦) قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وقال تعالى: ﴿قَالَتِ السَّحْرَةُ سَجِدِينَ﴾^(٧) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَمَا الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴿٤٩﴾ لَأَقْطِعَنَّ

(١) سورة النحل: 125.

(٢) سورة النحل: 111.

(٣) سورة الحج: 8.

(٤) ابن كثير (1982م). تفسير القرآن العظيم. دار المعرفة، بيروت، ط2 ص 181.

(٥) كحيل، عبد الوهاب (1985م). الاسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، عالم الكتب للنشر، القاهرة، ط1ص 243.

(٦) سورة يونس: 76-81.

أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَبَّاتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايَطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ مَشْرِيقَاتٍ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَىٰ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَيُّهَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَظْمًا فَنُفِثُ لَهَا عَظْمًا فَتَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَال هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يُضَرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿٧٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَرَى الْبَاحِثُ أَنَّ الْجَبَلَ الْمَنْمُومَ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ صَاحِبُهُ إِحْدَاثَ الْفِتْنَةِ فِي الرَّأْيِ الْعَامِ وَمَسَاوِمَةِ الْآخِرِينَ عَلَى الْأَخْذِ بِرَأْيِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ سِنْدٌ مَنْطِقِيٌّ أَوْ مَوْضُوعِيٌّ، وَكَثِيرًا مَا يَعْطَلُ رَأْيَهُ الْمَخَالَفَ بِالنَّشْهِيرِ وَالطَّعْنِ وَالسَّبَابِ وَالْإِقْتِرَاءِ وَالتَّضْلِيلِ.

(١) سورة الشعراء: 46-76.

(٢) سورة الحجر: 28-36.

المبحث الثاني

نشأة علم الجدل

الجدل ظاهرة عالمية لوجودها في غير الأجناس البشرية كالملائكة وإبليس، لذلك فإننا إذا أردنا معرفة تاريخ الجدل ونشأته، فإن القرآن الكريم يروي لنا نماذج من جدل الأمم الغابرة منذ أن وجد الإنسان على هذه البسيطة بل قبل وجوده، كما ورد في جدل الملائكة حول كون آدم خليفة في الأرض، ولذلك لا يمكن أن نحدد وقتاً زمنياً لنشأة الجدل بمعناه الفطري العام؛ لأنه وجد بوجود الإنسانية. كامناً في نزعاتها البيانية. أما نشأة علم الجدل في البيئات الإسلامية فقد ظل مقصوراً في عصر الصحابة والتابعين على ما تدعو إليه الحاجة من تبيان الحق، ودفع الشبه، وترجيح الأدلة في الاجتهادات الفقهية، ولم يقع في العقائد إلا نادراً؛ لأنهم كانوا يعرفون الأدلة نصاً ومعنى، لذلك كانت فطرتهم سليمة. ويقال: إن أول من تَوَّجَّه في الجدل هو أبو علي الطبري، ثم كثرت التأليف من بعده، وأول من صنف فيه من الفقهاء الشاشي سنة 366هـ⁽¹⁾.

أسباب انتشار الجدل

- [1] انتشار مجالس الفُصَّاص في المدن الإسلامية، فقد فتح المجال للناس في تناول المشكلات الطارئة، والرغبة في معرفة حكمة الدين.
- [2] مهاجمة اليهود والنصارى والدهريين وغيرهم للدين الإسلامي، فتصدى لهم العلماء لإبطال أقوالهم.
- [3] طرق باب البحث في بعض الموضوعات العويصة كالغيبيات التي كانت مزالِق لبعض الباحثين، ومبدأً يتفاضل فيه المتجادلون.

(1) مهروال، عبدالسلام (ب ت). المنهج القرآني في جدل الاستدلال. دار العلم، بيروت، ط 1 ص 6.

[4] ميل العقول إلى نوع من الترف العقلي بالبحث فيها. كل هذه الأسباب هيأت العقول للجدل والمناظرة فيما يعرض من مسائل دينية وسياسية فثارت بحكم الضرورة رياح الخلاف لاختلاف الأنظار، وتباين المقاصد.

المبحث الثالث

الجدل عند فلاسفة الغرب

إن كلمة جدل مستمدة من الكلمة اليونانية (ديالوجو)، وتعنى النقاش أو المجادلة أو المناظرة. فقد كانوا يرون أن مناقشة أى مسألة من المسائل التي تتعلق بحياة الإنسان، والسماح لمختلف وجهات النظر، والتداول حول أي أمر من الأمور تعارضاً أو تناقضاً هي أفضل الطرق للوصول إلى الحقيقة الموضوعية⁽¹⁾. فالجدل في المنطق الكلاسيكي هو الطريق الأمثل في البحث عن الحقائق، أو أسلوب من أساليب المناظرة التي تطرح المتناقضات الفكرية والثقافية التي تطرأ في كثير من المجتمعات الأدبية والسياسية حيث يجتهد كل طرف في أن يظهر نقيض الطرف الآخر أو ضعفه أو خطأه. ومن هنا تتجلى جنور الصراع الفكري والأيدولوجي بين النفي والإثبات حتى ينتهي إلى نتيجة قد تلائم إحدى وجهات النظر المتصارعة، أو بمعنى آخر انبثاق رأى جديد يوافق موجهاً الحياة المختلفة.

ثم تطور مفهوم الجدل عن الفلاسفة الديالكتيين فرأوه أن الجدل لم يكن فقط منهجاً أو أسلوباً للكشف عن بنية الصراع الفكري بل هو أسلوب للتعبير عن الواقع في كثير من المجتمعات، وخاصة التقليدية منها، كما أصبح قانوناً كونياً عاماً يعمل على كشف الظواهر الطبيعية والحقائق الموضوعية التي توافق عقل الإنسان، وليس كل ما يخالف وجهات النظر هو التناقض أو الجدل في حد ذاته، فالجدل عند الديالكتيين هو قانون للتأمل والتدبر وطريق للتفكير في المظاهر الطبيعية، ومبدأ يركز عليه الواقع في الوجود أو في

(1) رحمة الله، محمد الماحي (2005م). جدلية العقل والمادة. دار النشر الخرطوم، الخرطوم، ط1ص87.

التطور. وفي هذا السياق ذكر (هيجل) : " أن القوانين الطبيعية الأكثر عمومية التي تحكم الكون في تطوره هي ذات طبيعة جدلية تجد مكانها ضمن نظام لا يعترف بأي حقيقة أولية أو أصلية إلا بالتفكير وإعمال العقل"^(١). وفي المقابل ذكر (لينين) : " فإذا كان ثمة تناقضات في أفكار الناس يعنى ذلك الواقع الذى يظهره فكرنا، فجدل الأشياء ينتج جدل الأفكار، وليس الضد ". وذهب آخرون إلى أن النظام الكونى يقوم على أساس التناقض فى وجوده وأصله ونشأته، وأن هذه القوانين يجب أن تقوم على معرفة حقيقية، إلا أن هؤلاء الفلاسفة لا يدركون أن القانون العام الذى يحكم نظام الكون هو الذى يفسر الكون كله، وكل قضية فى الكون تعد إثباتاً لا نفيًا، فالأساس الذى يحكم العالم يقوم على:

* مرحلة الإقناع (Conviction Stage).

* مرحلة الموضوعية (Objectivity Stage).

* مرحلة الأطروحة (Thesis Stage).

وما ذهب إليه هيجل مع إقراره بالوجود، فإن مقولاته تخالف الفكر لأنها اعتمدت على المفاهيم والمقولات الروحانية القديمة (الأقائيم) التي نتحدث عن الثالوث الأقدس فى مسألة الإلهية دون الإقرار بوجود الله سبحانه وتعالى.

فإذا نظرنا إلى الظواهر الطبيعية Natural Phenomenon لم يوجد هناك تناقض أو جدل فى هذه الحتمية، وبناءً عليه فسر بعض العلماء هذا التناقض بأنه يكمن فى التركيب بين الوجود واللاوجود لأن الوجود مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها دون أن تحكمه نقائض الصراع سواء فى المحتوى الداخلى Internal أم الخارجى External. ثم تطور الجدل عند الماركسيين بالمعنى الذى ذكره هيجل، ومن أتى بعده فأصبح الجدل هو أحد وسائل الفهم المادى للعالم بشقيه الطبيعى والاجتماعى والثقافى، وأنه مبعث لكل

(١) رحمة الله، محمد الماحي (2005م). مرجع سابق.ص.89.

الأنشطة الإنسانية التي تسعى لتغيير العالم^(١). ومن هنا درج بعض الماركسيين على تعريف الجدل عند الديالكتية بأنه: فهم لقوانين الحركة". لذلك فإن ثمة فرقاً بين هذه النظريات حول الطبيعة وأجزائها المتنوعة، فالذى يدرس الظواهر الطبيعية لا يمكنه فصل بعضها عن بعض وتجريدها من أحوالها وشروطها، وعمما يرتبط بواقعها من ماضٍ وحاضر، فكل حادثة لا يكون لها معنى إذا عزلت عن الحوادث الأخرى المحيطة بها. لذلك فإن لكل شئٍ في الدنيا أجلاً ينتهي إليه لا محالة بصفته الفردية، ومع الانتهاء تظهر علامات الفناء والزوال والاختلال، فالنظام الكونى الذى نعيش فيه لا بد أن ينتهى، ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن القوانين الدنيوية المألوفة، فالله عز وجل هو الذى سيقم محكمته التى سوف يحاسب فيها عباده، فعلى الرغم من مجادلة اليهود والنصارى لحقيقة الدين واليوم الآخر إلا أن ادعاءاتهم لم تقم على دليل منطقي وحجة باتنة.

المبحث الرابع

الجدل فى القرآن الكريم

نكر القرآن الكريم فى كثير من الآيات كلمة جدل كأسلوب ومنهج من مناهج الدعوة للكشف عن حقائق الأشياء بصورة موضوعية ومنطقية لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢) يقول ابن كثير فى سبب نزول هذه الآية الكريمة: عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: تبارك الله الذى أوى سمعه كل شئ وأنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول: "يا رسول الله ﷺ أكل مالي وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك قالت فما هي حتى نزل

(١) فهمي، سمية أحمد (1975م). الأسس النفسية للاتجاه الديني. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1ص44.

(٢) سورة المجادلة: 1.

جبريل بهذه الآية " ورسول الله ﷺ يقول لها: ياخولة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه، وتقول يا رسول الله: ما طلقني ولكنه ظاهر مني، فيرد عليها قوله السابق ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك. فاستجاب الله دعائها، ففرج كربتها وشكواها^(١). ومن الدروس والعبر التي يمكن أن نستخلصها من هذه الآية الكريمة أن الجدل هو:

- * من أسمى آيات المولى عز وجل.
 - * حالة نفسية يستطيع المسلم أن يحلور خصومه وإقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة.
 - * علاج للقضايا بصورة موضوعية وواقعية ومنطقية.
 - * يحفظ العدالة الاجتماعية بين الأفراد.
 - * دليل الإتصال المباشر بين طرفين أو أكثر في صورة محسوسة.
 - * مبدأ مهم لحفظ الحقوق الآنية والمستقبلية.
 - * جوهر الشريعة الإسلامية، وأساس من أسس اليسر ورفع الحرج عن الآخرين.
- فالجدل حقيقة مثالية في طبيعة الموجودات الكونية على الرغم من أن الإنسان أكثر الموجودات جدلاً، وقد شكل الجدل والحوار مقدراً كبيراً في مسيرة السيرة النبوية والدعوة الإسلامية، فقد حاور النبي ﷺ مشركي قريش وكفارهم، كما جادل النصارى بالحجة وأفحم اليهود بالمنطق، وأقنع صحابته بفكره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٢) أي لقد أبان القرآن الكريم كثيراً من الأمثال والحجج والمواعظ التي تدل على أهمية الجدل في إظهار الحق لأن طبيعة الإنسان المادية تقوم على الجدل والخصومة والنزاع لقوله تعالى: ﴿وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ

(١) الصابوني، محمد على (1981م). صفوة التفاسير. دار القرآن الكريم، بيروت، ط2 ج3 ص333.

(٢) سورة الكهف: 54.

وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١﴾ أي بقدرته تعالى يخلق السحب الكثيفة المحملة بالماء؛ ويرسل الصواعق والرعد والبرق، وتسبح له الملائكة خوفاً من عذابه، ويرسل الصواعق المدمرة ليهلك بها من يشاء من كفار مكة الذين يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي شديد القوة والبطش والنعكس. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢) أي قال قوم نوح لنوح عليه السلام: قد خالصمتنا فأكثرت خصومتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين قتلا عليهم قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣)، أي لستم هاربيين من قبضة الله تعالى لأنكم في ملكه وسلطانه (٤) وقال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (٥)، أي أن من ألزم نفسه بالحج فلا يقرب النساء، ولا يستمتع بهن، لأن من أراد أن يطيع الله قاصداً رضاه عليه أن يترك الشهوات والمعاصي والجدال والخصام. فالإنسان الذي يقع في غياهب الظلم والظلمات يجادل سواه من غير علم ومعرفة لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٦)، فالكفار الذين يجادلون في آيات الله بالباطل لا ملجأ لهم أمام الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر القرطبي: "أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح

(١) سورة الرعد: 13.

(٢) سورة هود: 32.

(٣) سورة هود: 33.

(٤) الطبري، محمد بن جرير (1968م). جامع البيان في تأويل آية القرآن. مطبعة مصطفى البابي،

القاهرة، ط3، ص415.

(٥) سورة البقرة: 197.

(٦) سورة الشورى: 35.

من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم^(١). وعلى هذه الشاكلة تمادى قوم هود على الكفر والإلحاد، وقالوا ياهود: أجننتا نتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده، ونهجر عبادة الآلهة Thesim أو الأصنام، ونتبرأ منها؟ فغضب الله عليهم وحل بهم العذاب لقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ^ط أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ^ط فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ^ط ﴾^(٢) أي تجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وأبؤكم مانزل الله بها من سلطان وتخاصمونني في أصنام لاتضر ولاتنفع فانظروا حتى ينزل لكم العذاب. وعندما عرض القرآن الكريم على الإنسان عقيدة حياة الآخر أنكروا المنكرون هذه الحجة وقالوا: إن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس، إذ كيف لنا أن نؤمن بأن الذين قد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات سيرزقون الحياة مرة أخرى؟ وهنا اختار المولى عز وجل أسلوباً من أساليب الاستدلال والبيان فدعا الناس إلى أن يتأملوا في الآفاق وفي أنفسهم لإقامة الحجة ونفي التناقض لقوله تعالى: ﴿ سَرُّرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي ^ط الْأَفَاقِ ^ط وَفِي ^ط أَنْفُسِهِمْ حَتَّى ^ط يَبَيِّنَ ^ط لَهُمْ ^ط أَنَّهُ ^ط الْحَقُّ ^ط أَوَلَمْ ^ط يَكْفِ ^ط بِرَبِّكَ ^ط أَنَّهُ ^ط عَلَى ^ط كُلِّ ^ط شَيْءٍ ^ط شَهِيدٌ ^ط ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ ^ط يَنْظُرُوا ^ط فِي ^ط مَلَكُوتِ ^ط السَّمَوَاتِ ^ط وَالْأَرْضِ ^ط وَمَا ^ط خَلَقَ ^ط اللَّهُ ^ط مِنْ ^ط شَيْءٍ ^ط وَأَنْ ^ط عَسَى ^ط أَنْ ^ط يَكُونَ ^ط قَدِ ^ط أَقْرَبَ ^ط أَجْلَهُمْ ^ط فَبِأَيِّ ^ط حَدِيثٍ ^ط بَعْدَهُ ^ط يُؤْمِنُونَ ^ط ﴾^(٤) كما دعا الإنسان إلى التأمل فيما هو أكثر بدهاءه وجللاء لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ ^ط الَّذِي ^ط رَفَعَ ^ط السَّمَوَاتِ ^ط بِغَيْرِ ^ط عَمَدٍ ^ط تَرْوَاهَا ^ط ثُمَّ ^ط اسْتَوَى ^ط عَلَى ^ط الْعَرْشِ ^ط وَسَخَّرَ ^ط الشَّمْسَ ^ط وَالْقَمَرَ ^ط كُلٌّ ^ط يَجْرِي ^ط لِأَجَلٍ ^ط مُّسَمًّى ^ط يَدِيرُ ^ط الْأَمْرَ ^ط فَيَفْصِلُ ^ط الْآيَاتِ ^ط لَعَلَّكُمْ ^ط يَلْقَاءُ ^ط رَبَّكُمْ ^ط تُوفُونَ ^ط ﴾^(٥) وقوله

(١) القرطبي (1403هـ). الجامع لأحكام القرآن الكريم. تحقيق عبدالرازق المهدي، دار الجيل، بيروت، ط2ص33.

(٢) سورة الأعراف: 71.

(٣) سورة فصلت: 53.

(٤) سورة الأعراف: 185.

(٥) سورة الرعد: 2

تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(١). فالأجرام السماوية كلها من خلق أو صنع الله العظيم البديع المتسق، وهو الذى يملك قانونه ومهيمناً عليه بنظام مترابط ومتناسق، وبقوته أقيمت كل طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة تعجز كل المخلوقات عن إدراكها ومعرفة كنهها، وعلى الرغم من إحساس بعض العوام بأن لهم القدرة فى إقامة الحجة والقياس فى بعض الامور الحيوية إلا أن هذه الحجة إذا لم تقم على دليل منطقي وموضوعي، فالعقل والمفكر يسارع فى أن يثبت وجوده، وهي أن وجوده أولى من عدمه، ولكن الماديين الذين يعتقدون فى العلوم التجريبية ينكرون هذا القياس، ويقولون: إن هذا الكون لم يصنعه حلیم مدبر، وإنما نشأ بنفسه على سبيل المصادفة، وفى اليوم الذى ينتهى فيه التعاون والتعامل بين المادة Material والطاقة Energy يختل هذا النظام الكونى الدقيق بدون مدبر أو صانع أو محكم، وهنا تكمن خطورة المجادلة فى أمور ليس لمخلوق سلطة فيها، فالدلائل التى ساقها القرآن الكريم تدل على أن لهذا الكون صانعاً حكيماً قادراً لا يخلو كل فعل من أفعاله من الحكمة البالغة لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾^(٤).

ويخرج من هذا السياق فكرة الإصلاح الديني Religious Reformation

حيث يسعى كل مسلم ليرد الإعتبار لقيمه الدينية، ويدفع ما أثير حولها من الشكوك والاستلاب العقلي... محولاً السير بالقواعد الإسلامية نحو الأفضل رداً على الذين يدعون للتجديد بعيداً عن الحس والمشاهدة، فالدافع الأساسى الذى يجب أن يتمسك به المسلمون فى

(١) سورة النازعات: 27.

(٢) سورة المؤمنون: 115.

(٣) سورة القيامة: 36.

(٤) سورة الدخان: 38.

حياتهم هو التعايش في وضع أكثر ملاءمة في ظل المتغيرات الجمة التي تحدث في كافة أنماط الحياة المختلفة، فالتفكير الديني في القرآن الكريم يقوم على الأساس الآتي:

- [1] سرعة البديهة في التعامل مع الظواهر الطبيعية.
- [2] تفسير الظواهر الطبيعية بأنها عطية من الله لعباده يجب التعامل معها وفق القوانين الكونية.
- [3] الإقرار بأن المتغيرات التي تحدث في الكون حقيقة واقعية.
- [4] لا ينكر الإسلام العلم التجريبي من أجل المعرفة.
- [5] إن الإسلام كدين له مميزات فإنه يأخذ بالعموم دون الخصوص في كليته مقروناً بالحجة وله جانبان:

* جانب ديني: وفي أسمى مظاهره الصوفية التي تتحدث عن القواعد الإلهية القادرة على إعداد المسلم خلقياً حتى يكون قادراً على تحمل الأمانة الإلهية.

* جانب عقدي: ويختص بالقواني الفردية، وهو وحده الذي يكفل له الحرية الروحية والديمقراطية التي هي منتهى غاية الدين ومقصده.
فالإنسانية اليوم تحتاج الى الدين لتحقيق الأسس التالية:

- [1] تأويل الكون تأويلاً روحياً.
- [2] تحرير روح الفرد.
- [3] وضع قوانين أساسية ذات أهمية في توجيه تطور المجتمع الإنساني.
- [4] الإذعان بوجود قوة تضاهي قوة البشر.
- [5] تهذيب سلوك الفرد والجماعة.

وعلى هذا المنوال يجب على كل مسلم أن تكون آراؤه النهائية قائمة على أساس القرآن الذي يتحدث عن مفهوم الحياة والوجود بجوانبها الكلية، وخاصة التي تهتم بالجانب الروحي والجسدي كممارسة الحرية والديمقراطية التي تمنع الاعتداء على ذاتية الفرد، وبها يستطيع كل مؤمن أن يفسر الظواهر الطبيعية المدركة لحقيقة الوجود، وهنا يدرك

المرء أهمية الجدل في الجوانب العقديّة لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَآئِن يُؤْفَكُونَ﴾^(١).

وقد حكى القرآن الكريم عن المشركين الذين انخدعوا بالحس المادى فاعتقدوا فى كائنات محددة أنها ذات تأثير إيجابى أو سلبى فى حياتهم، وأنها آلهة تعبد دون إعمال العقل الذى يرى أن هذه المحسوسات هى جزء من الموجودات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾^(٢)، فالشخص غير المدرك عندما يغيب ظنه يميل إلى إنكار عقله الذى يتصل بشهوته فيدفعه إلى إنكار عالمه الذى يعيش فيه. أما المدرك فهو الذى يستطيع أن يحدد خصائص وجوده، فينتقل من عالم الخرافات والتصورات والأساطير إلى عالم القيم الإيمانية التى يستطيع بها إدراك الحقائق بصورة موضوعية، ويدرك أن تلك الحقائق الواقعية مصدرها (الوحى) وهو ذلك الموجود الذى لا يحدده كائن من كائنات الطبيعة.

المبحث الخامس

وسائل الجدل

ينشأ الجدل عادة فى العلاقة بين الظواهر الطبيعية الحسية الخارجية، والمجتمع نتيجة لطبيعة النفس التى تناقض ذاتها رغم توفر الأدلة القطعية التى تبطل التناقض والخيال والأوهام لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٣)، أى أقسم المولى عز وجل بالنفس البشرية التى أنشأها وأبدعها وجعلها مستمدة لكمالها بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهب لها العقل الذى يميز بين الحق والباطل والخير والشر. وقد تنتوع أدوات المجادلة Tools Disputations فى القرآن الكريم على النحو التالى:

(١) سورة الزخرف: 87.

(٢) سورة النجم: 23

(٣) سورة الشمس: ٧

* الحرية: إن الحرية في المجتمع الإسلامي، هي حرية المسلم في تطبيقه للإسلام أو حرّيته في أن يتمتع بالقدر الذي أذن له المولى عز وجل في ممارسة شؤون حياته دون إفراط أو تقريط، وهي مفهوم تحمل قدسية المسلم لارتباطها بشعار العبودية الذي يتعلق بالطاعة والإيمان والاستقرار والطمأنينة، وقد جاء في تعريف بعض العلماء أنها: "رخصة العمل المباح من غير مانع..."^(١) وقد عرفها الزجاجي بأنها: "هي ما يميز الإنسان عن غيره من مخلوقات من خلال ممارسة شؤون حياته والاختيار دون إكراه"^(٢). ويرى الباحث أنها: "إمكان الفرد في التعبير عن معتقده أو فكره أو رغبته بحيث لا يصل هذا الإمكان إلى المجاهرة فيما يخالف الدين أو يمس المصلحة العامة، أو مصادرة حقوق الآخرين دون وجه حق". وللحرية قيذان هما:

- [1] قيد داخلي: وهو ما يسمى بالرقابة الذاتية كالإيمان بالله والخوف منه أو إظهار الحياء.
[2] قيد خارجي: ويرتبط بالذات الإنسانية التي ينظمها القانون في كافة مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية... وغيرها.

فالعبودية هي المظهر الذي يشكر به الإنسان ربه لأنه سخر له الكون كله لمصلحته أو من أجل ذلك أرسل الله عز وجل المرسلين مبشرين ومنذرين لتنظيم هذه العبودية. قال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣)، أي ما أرسل الله المبشرين والمنذرين إلا للتبشير والإنذار لا للهلاك والدمار، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان، ورغم صيرورة

(١) حوى، سعيد (1979م). الإسلام. دار مكتبة الحياة، القاهرة، ط2ص17.

(٢) البهي، محمد (1994م). الفكر الإسلامي الحديث. مكتبة وهبة، القاهرة، ط1ص39.

(٣) سورة البقرة: 213.

الحق إلا أن الكفار والمنافقين قد جادلوا بالباطل ليدحضوا الحق. فالذين تعرت فطرتهم وجعلوا لله أنداداً دون علم صحيح أولئك هم الكافرون الذين نكسوا عهد الله فوبخهم بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝٦٦ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ (١). فالخطاب هنا للنبي ﷺ أي أن لكل نبي من الأنبياء، أو أمة من الأمم السابقين شريعة ومناهجاً، فلا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعت لك ولأمتك والضمير. وإن جادلوك وخاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٢). فالعقيدة الدينية تكفل للمجتمع الإنساني ثلاثة عناصر رئيسية:

* حرية ممارسة الشعائر الدينية.

* توفير أسباب الراحة والطمأنينة

* حمل الأمانة.

* كفالة احترام القانون.

وقد تكفله أهمية حرية الفرد في تقديم السلوك والقيم المقيدة بأحكام الشريعة الإسلامية قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ بِئِهِ وَإِنَّ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ (٣)، فالمجادلون من الكفار والمنافقين يضلون الناس بتحريم الحلال، وتحليل الحرام بمجرد الأهواء والشهوات،

(١) سورة الحج: 66-67.

(٢) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (1966م). الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 ص98.

(٣) سورة الأنعام: 121.

فيستغلون معنى الحرية في اتباع الهوى دون أن يدركوا أن هنالك من الأحكام ما هو ثابت ثبوت الدلالة ليس للإنسان دخل فيه.

* العلم والمعرفة: هو معرفة المعلوم من الذات والصفات والمعاني على ما هو عليه وهو نوعان: علم نظري، وهو ما يحتاج إليه المرء في التأمل والتفكير، ومعرفة المحسوسات والمرئيات مما يدرك بالحواس كالبداهيات. وعلم ضروري، وهو ما يحتاج إليه المرء مثل وجود الله والملائكة أو كالغيبات التي لا يستطيع العقل إعمالها^(١). وقد روى عن علي رضي الله عنه قوله في فضل العلم والمال على النحو التالي:

[1] العلم ميراث الأنبياء.

[2] العلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها.

[3] المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه.

[4] إذا مات الرجل خلف ماله وأهله والعلم يدخل معه في قبره.

[5] العلم نور في وجه صاحبه.

[6] جميع الناس محتاجون إلى العلم والمعرفة في أمور دينهم ودنياهم.

[7] العلم يقوى المؤمن عند المرور على الصراط والمال يمنعه منه.

رغم هذه المقابلة الواضحة بين العلم والمال إلا أن هنالك من يجادلون الناس بغير علم ومعرفة قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾^(٢)، فالذين يجادلون ويخاصمون وينازعون في قدرة الله وصفاته بغير دليل أو برهان يتبعون خطوات الشيطان، فالعلم بالشئ ضرورة من ضرورات الحياة فلا غنى للإنسان عنه متى أراد الكمال. وهذا سيدنا سليمان (عليه السلام) لم يفخر بالملك والمال، وإنما افتخر بالعلم والمعرفة قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ

(١) الجزائري، أبوبكر جابر (1403هـ). العلم والعلماء. دار الكتب الفلسفية، القاهرة، ط1 ص11.

(٢) سورة الحج: 3.

الطَّيْرُ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ ﴿١﴾. وفي هذا السياق فقد منع الله عز وجل عباده أن يميلوا إلى هوى الأنفس والشهوات دون علم ومعرفة قال تعالى: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢﴾. ومن هنا كان بين العلم والمعرفة العموم والخصوص كلفظي الحمد والشكر فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل تكوينها، إذ إن علمه سابق لكل معلوم، وبالتالي يظهر أن المعرفة تتناول النوات أكثر مما تتناول المعاني قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُوهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتُمُوهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣﴾ فالسر الرباني يشير إلى أن العالم العامل بعلمه صاحب القلب الواعي التقى والورع لا يشبه ذلك الكافر العاجز الذي يجادل في حق الله بغير علم. قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكَاتِبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْرَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ هَتَأْتُمْ هَتُولَاءَ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾، أي أن يكون بيان الرأي على أساس من العلم والفقاه بحسب الآداب الشرعية.

* الإبداع في الموعدة الحسنة: هو هداية الناس الى الخير، والتذكير بنعم الله وحثهم على الشكر والثناء. كما عرفه بعضهم "هو القول الحق الذي يلين القلوب ويكبح جماح النفوس المتمردة، ويجعل النفوس المهذبة أكثر إيماناً وهداية"، فالإبداع في الموعدة الحسنة غايته إصلاح المعاش والمعاد لأنه يتعلق بطب القلوب والأرواح، وهو وظيفة الأنبياء والمرسلين، فإذا كانت الموعدة الحسنة هي النصيحة بالأسلوب المحبب والمقبول الى النفوس فلا بد من مراعاة جانب الحكمة في تحديد الوقت والمكان المناسبين،

(١) سورة النمل: 16.

(٢) سورة الحج: 8.

(٣) سورة محمد: 30.

(٤) سورة آل عمران: 65-66.

مع الإيجاز ومراعاة حال المستمعين. قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾⁽¹⁾ أي يا محمد ادع الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم واللفظ واللين بما يؤثر فيهم، لا بالحنز والتأنيب والقسوة والشدة، وجادل المخالفين منهم بالتي هي أحسن من خلال المناظرة والمجادلة. فأنه هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين. فالموعظة الحسنة في الإبداع تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء فليتنطفئ منها حرارة الصدر، وتعمق المشاعر، وتنفس القلوب في تودة، وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة، فهي ترغيب للكف عن التقاليد التي تخالف الشرع، وليست تهديداً كما يزعم المنافقون، فالموعظة هي ثورة الجموح لأنها من الطبائع الخيرة العاطفية، ولكي يكون الإبداع جزءاً من أدوات الجدل في الموعظة الحسنة يجب مراعاة الآتي:

- [1] أن يكون الإبداع أسلماً في تفسير حل الناس من حالة الفساد والتكوص إلى الصلاح والفلاح.
 - [2] تقديم النصح والإرشاد بالطريقة التي يألفها الناس دون التصريح بالوعيد والتهديد.
 - [3] أن يتوفر عند المدعو من الفراسة والكياسة ليعرف مدى استعداد المدعوين وقدرتهم على تقبل الدعوة، فيقدم لهم ما يطمنون ويصرف عنهم ما لا يطيقون.
 - [4] أن يختار المبدع الأوقات المناسبة.
 - [5] أن يبعد المبدع نفسه عن الخوض في دقائق علم الكلام.
 - [6] إعداد الموعظة الحسنة بالصورة التي يألفها الناس، مثل الشعر والأمثال والحكم.
 - [7] أن يكون للمبدع حسن اليقظة والتخلص من المواقف التي تجر الناس إلى الاصطدام.
- وقد ذكر القرآن الكريم حقيقة الإيمان بالله وصفاته القدسية، وولايته للمؤمنين والكافرين على السواء كما وصف حال الطغاة والكفرة المعاندين والمجانلين في وحدانية

(1) سورة النحل: 125.

الله، فأراد الله أن يبين لهم أنه هو الحكيم المبدع لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رِيهٖ أَنْ ءَاتَهُ اللهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١)، أي أيها السامع من أمر هذا الكافر (النمرود بن كنعان) المجادل في قدرة الله ووجوده حين أتاه الملك فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان، ولما قال له إبراهيم عليه السلام "ربي الذي يحيي الخلق ثم يميتهم" قال الطاغية "أنا أحيي وأميت" وروى أن (النمرود) دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما وأمر بإطلاق الآخر فقال: "أحييته" ولما رأى إبراهيم (عليه السلام) حماقته استخدم له دليلاً آخر أجدى وأروع وأشد إجحاماً. قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَإِنَّكَ اللهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي إن كنت تدعي الألوهية فهل لك مقدرة في طلوع الشمس وغروبها؟ ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي افترس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة فأصبح مبهوتاً وهشاً لا يستطيع الإجابة، فذلك هو الخسران المبين، فالإبداع في التدرج وتقديم الجانب الموضوعي في الدعوة هو غاية في النجاح وإثبات الحجة.

* الأخلاق الفاضلة: عندما يغيب الوازع الديني عند الإنسان تتطلق أهواؤه لتعبر عن نفسها بنظريات غير مثالية متناقضة ومتضاربة يحاول أن يعرف ماحوله ولا يستطيع معرفته لأنه لا يملك الأصل الذي يرجع إليه، ومهما يجتهد أن يرد وازعه إلى نظام معين فإنه يستعصى عليه، ويومئذ يصبح كالحيوان، إذ إنه يسخر كل إمكاناته العلمية والمعرفية في الإتجاه المناقض. وهذا ما ذكر في قصة إبراهيم عليه (الصلاة والسلام) حين جادل الملائكة في قوم عندما أرادوا إهلاكهم، وكان الغرض من هذه المجادلة هو تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ولكنهم كفروا وتجبروا وفسدوا في الأرض قال تعالى:

(١) سورة البقرة: 258.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلَاتًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّؤْتِبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَيْرٌ مَّرْدُودٌ ﴿٧٦﴾ ﴾^(١)، تناولت الآيات قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط لأنهم جحدوا نعم الله فقال لهم إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) : رأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين اتهلكونهم ؟ قالوا: لا، فأربعون ؟ قالوا: لا، فمزال يتنزل معهم حتى قال لهم رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم ؟ قالوا: لا، فقال لهم : إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لنجنبنه وأهله إلا أمراته من الغابرين (الطبراني : دبت: 80/2) وهذا دلالة على سمو أخلاق سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) فهو غير عجول في الانتقام إلى المسيء وهو ﴿ أَوَّهٌ مُّؤْتِبٌ ﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه، فالذي يجب أن يجادل في الحق يجب أن يتوافر فيه الصفات التالية:

[1] الأمانة.

[2] الأخلاق.

[3] الصدق.

فالأخلاق هي رياضة السجايا وتقديم الطباع الفاضلة، وكمال المرء يكون بحسن أخلاقه الباطنية والظاهرية^(٢). فالحقيقة الماثلة أن الإنسان لا يستطيع أن يستخدم طاقته النفسية والجسدية والروحية بصورة واقعية إلا إذا تحلى بالأخلاق الكريمة التي تؤدي إلى حب المنافسة والتسابق إلى الخير، فإذا انحرف الإنسان عن هذه الخصوصية أصبح جسداً بلا روح، وهذه ظاهرة مرضية لانجدها إلا عند المنافقين الذين ينكرون نعم المولى عز وجل ويعصون أوامره. وقد أطلق الدين الحنيف للإنسان كل طاقته الجسدية

(١) سورة هود: 74-76.

(٢) الجزائري، أبوبكر (1403هـ). مصدر سابق. ص.15.

والروحية لتحقيق غاياته الضرورية والتحسينية والحاجية (حوى 1979م: 317). فالذى يتميز بالأخلاق الفاضلة ويسعى للوصول إلى الكمال الإنساني يجب عليه الآتى :

* تفجير الطاقات فى الاتجاه العلمى والعقلى والروحى.

* تنمية الأخلاق بالكرم، والحلم والرحمة والطف بالهداية.

* التحلى بمكارم الأخلاق التى يستطيع بها تحقيق غاية وجوده.

* بسمو الأخلاق يأخذ كل ذى حق حقه.

وبناءً على ما ذكر يستطيع كل فرد فى المجتمع أن يتخلص من الظواهر النفسية التى تخالف الدين. وقد تختلف القيم الاخلاقية من مجتمع لآخر حسب العوامل الوراثية والأحوال البيئية والنشأة. هذا بالإضافة إلى التطور التكنولوجى. فالعاقل هو الذى ينظم مسؤولياته بناءً على ما أُلزم به الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾^(١).

فعندما بلغ الله عزوجل أحكامه لخلقه بوساطة رسله وأنبيائه الذين قدموا الحجة بالدليل والبرهان، ولم يبقوا شطراً من الخلق الحسن إلا بينوا للناس كافة حتى اكتملت مكارم الأخلاق مصداقاً لقول رسوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ويرى الباحث أن الأخلاق يمكن أن تصاغ من جانبين رئيسيين: هما الجانب العلمى الشامل شمول العقائد والعبادات والمعاملات، والجانب النظرى الذى يتعلق بالنظم الحيوية المختلفة: الاقتصادية والسياسية والثقافية والإجتماعية والفكرية، وغيرها. كل هذه القضايا صيغت لبقى الإنسان فى دائرة سمو الأخلاق، وهى الدائرة التى تميز الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى. ومن مكارم الأخلاق أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن مع أهل

(١) سورة النحل: 89.

الكتاب إلا الظالمين منهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ حُسْرٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١) أي لاتدعوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن كدعاء الله الى الظالمين بالتوبة والاستغفار. فالأخلاق أصل من أصول التعامل مع الغير، لأن كل ما أعطي البشر لصرح الكمال الأخلاقي موزون بمقدار، أي مقدار ما يرفع به الإنسان إلى مصاف الكمالات العليا في العلم والمعرفة.

* العدالة: وهي التزام جادة الطريق القويم، وتنسب إلى القانون الإلهي الذي يهدى الناس إلى الصراط المستقيم دون ميل إلى الأهواء والشهوات. فالعدالة هي تقيض الظلم، لها صلة بأداء الأمانات وحفظ الحقوق. ويرى الراغب الأصفهاني: "أن العدل هو إعطاء الناس حقوقهم بالمساواة كما يقررها القانون"^(٢). ومن العدالة جاءت المجادلة في الحق سنة من السنن الكونية التي أقرها القرآن الكريم حفظاً للحقوق، وصوناً للأعراض^(٣). وهي شكل من أشكال المشاعر والعواطف مصحوب بتقوى القلوب عند المتقين، أما الذين يجادلون في الحق، ويريدون الضلال فأولئك هم الغافلون والمنكرون. قال تعالى: ﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(٤)، أي يا محمد، إن الذين يجادلونك في الحق بعدما تبين لهم ليسوا لأنهم لا يدركون فنون الحرب أو القتال بل لأنهم لا يريدون الموت^(٥).

(١) العنكبوت: 46.

(٢) الأصفهاني، راغب (د ت). مصدر سابق ص 112.

(٣) بشير إمام، زكريا (2003م). مفهوم العدالة بين الفكر الإسلامي والغربي، دار روائع للنشر، عمان، ط1 ص 40.

(٤) سورة الأنفال: 6.

(٥) الصابوني، محمد علي (1981م). مصدر سابق ص 494.

وقد درج القرآن الكريم على منع المخاصمة والفجور من باب العدالة الاجتماعية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾^(١). ومن باب المجادلة أن تتوافر مقومات العدالة في الحقوق والواجبات دون تمييز. قال تعالى: ﴿هَتَأْتُهُم هَتُؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾^(٢)، أي ها أنتم يامعشر القوم جادلتم عن السارقين والخائنين في الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة؟ أو من الذي يتولى الدفاع عنهم أو ينصرهم من بأس الله سبحانه وتعالى؟ فالعدل هنا هو ما وقر في النفوس أي النسوية بين النظائر والأمثال قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ إِنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٤)، فالذين يجادلون في الله هم الذين عميت أبصارهم وقلوبهم عناداً وتكبراً، كما كان في قوم موسى ولوط عليهما السلام. فالعدل هو الفضيلة الأولى في النظام الإسلامي وإسم من أسماء الله الحسنى فإذا انعدم العدل ساد الظلم وهذا إيذاناً بإنهيار الأمم والشعوب وزوال الحضارات وتدميرها.

وعلى هذا المنوال فإذا غاب العدل في المجتمع ساد الظلم الذي هو انتقاص لحقوق الآخرين عنوة، فالمترفون اليوم هم سبب البلية والدمار، يسلبون الحقوق المعنوية والأدبية بازدرائهم وتحقيرهم للناس، والتعالى والاعتداء عليهم بالقول والعمل، وانتهاك

(١) سورة النساء: 107.

(٢) سورة النساء: 109.

(٣) سورة المائدة: 8.

(٤) سورة النساء: 135.

أعراضهم، ونهب أموالهم، واستغلال فقرهم وحاجتهم للحياة، وهذا ما نهى عنه القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، فغير العادلين هم الذين يجادلون في الله بدون بصيرة، ويظنون بالله ظن السوء ويسخرون من الفقراء والضعفاء، ويرهبونهم بكل وسائل الضغط، حتى إن بعض ضعاف النفوس والإيمان يخضعون لهم تماماً وكأنهم آلهة يملكون الأعمال والأجال والارزاق. وما طغيان بعض الحكام اليوم ببعيد، فهم يجادلون في أمور الأمة ويطغون في الأرض فساداً وينسون أن الله مهلكهم ومسترجعهم إلى يوم معلوم قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون^(٢). أما الذين يستضعفون الناس فقد توعدهم الله عز وجل توعداً شديداً، وأنذرهم بأبشع أنواع العذاب والعقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَنُهَاجُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣)، فالظلم والطغيان لا يسودان في الأرض فلا بد لكل بداية نهاية.

خصائص المجادلة:

* الأصل في المجادلة أن تكون واضحة، ولا يترك للمجادل حجة يتمسك بها أو شبهة يستدل بها على باطله، قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتُوا بِي كَذِبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران: 116

(٢) سورة الأنبياء: 11-12.

(٣) سورة النساء: 97.

(٤) سورة القصص: 49.

* إنها تجمع بين الإنصاف بالدعوة والإلزام في النتيجة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

* الأصل في المجادلة أن تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

* وتستخدم المجادلة في القرآن الكريم كوسيلة من وسائل الإقناع بالحجة والبرهان في إثبات الحق وإزهاق الباطل^(٢).

* كثيراً ما تكون المجادلة في القرآن الكريم مع المشركين جدل هداية ودلالة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْبَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾^(٣).

* المجادلة في القرآن الكريم تخاطب العقل والوجدان معاً.

* أن يقصد المجادل تقديم النصح أو المشورة بخلاف الجدل عند الماديين الذين يريدون المغالطة وهوى الأنفس والشهوات، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَنبَغُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

* المجادلة في القرآن الكريم مقرونة ببيان الرأي والعلم والفقهاء.

أهداف الجدل:

يهدف الجدل في القرآن الكريم إلى تحقيق أسمى معاني المعرفة العلمية والفكرية والعقلية عن طريق تقديم الأدلة القطعية التي تؤكد وجود

(١) سورة القصص: 47.

(٢) أبو زهرة، محمد (1980م). تاريخ الجدل. دار الفكر العربي، القاهرة، ط1 ص64.

(٣) سورة القصص: 59.

(٤) سورة القصص: 50.

المولى عز وجل، وفيه يحقق الانسان وجوده بعد التأمل والتدبر فى ملكوت السموات والأرض. ولمعرفة طبيعة الأشياء يمكن أن نأخذ منهجين لا ينفصلان عن بعضهما أحدهما: المنهج العقلي Relational method والآخر المنهج العلمي Scientific method. ففي المنهج العلمى يأخذ الجدل منهجاً عقلياً، أى يتجه نحو العقل إلى العالم الخارجى، أو بصورة أوضح من الذات إلى الموضوع، ومن هنا ندرك أن الفكر الموضوعى ما هو إلا نتاج إبداع العقل الذاتى الذى يعتمد على التفكير العلمى Scientific Reason فى تفسير الظواهر الكونية التى تعتمد على الاستقراء Induction أو التجربة Experiment للوصول الى حقيقة، أو التنبؤ بوقوعها قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(١). وما استخلصته من هذه المعجزة هو:

* أن السموات والأرض لم يخالفا أمر المولى عز وجل.

* وأنهما أتتا طائعتين غير مكرهتين.

* وتجلى أمر التنفيذ لأن الله عز وجل هو الأمر والمطاع.

* وتصور أن قدرة الله عز وجل غير نهائية.

وخلاصة القول، عندما فرض الله عز وجل الفرائض الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات أعرضت عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها. فالغرض هنا تصوير عظمة الأمانة وليس المجادلة أو الاكراه والطاعة فى تحملها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٢) قال ابن الجوزى: "الأمانة هي

(١) سورة فصلت: 11.

(٢) سورة الأحزاب: 72.

التكاليف الشرعية كالالتزام بالطاعات وترك المنهيات، وقيل هي الأموال، وقيل
يحتمل الوجهين معاً^(١) وما استخلصته من هذه الآية :

* أن الله الذي خلق السموات والأرض عرض على الخلائق تحمل الأمانة فأشفقن
منها دلالة على عظمة هذه الأمانة في شدتها وقوتها.

* هذه الآية ضرب من المجز، لأن المجدل أو المحلور يعرف قررة نفسه في تحمل الأمانة.

* أن حمل الإنسان للفرائض الشرعية فيه دليل على ظلمه.

آداب المجادل:

* إن الشروط التي تكمل الجدل المشروع هي:

* أن يخلص المجادل نيته في جداله لقول رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات

وإنما لكل إمريء ما نوى"^(٢).

* أن يبنى جداله على النصيحة لقول رسول الله ﷺ: "الدين النصيحة".

* أن يكون الجدل بالرفق واللين، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾^(٣) ولقوله

تعالى: ﴿فَقُولْ لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٤).

* أن يضبط المجادل نفسه، ويملكها عند الغضب لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾^(٥).

* أن لا يستخف بالخصم.

(١) الصابوني، محمد علي (1981م). مصدر سابق. ج3ص540.

(٢) العسقلاني، ابن حجر (ب.ت). فتح الباري في شرح صحيح البخاري دار الجيل، بيروت: ، حديث رقم 2235

(٣) سورة العلق: 6.

(٤) سورة طه: 44.

(٥) سورة المؤمنون: 47.

الخاتمة

أكدت الدراسة أن منهجية المجادلة في القرآن الكريم هي أسلوب من أساليب المناظرة في إقامة الحجة بالبيان والبرهان والدليل القطعي واليقيني في معرفة قدرة المولى عز وجل في كل القضايا الإنسانية التي تتعلق بتربية النفس. وقد كونت أقسام الجدل محوراً موضوعياً في المعرفة العلمية إما مدحاً أو نمأً، واستناداً إلى ذلك فإن للجدال في القرآن الكريم أساليب جمة يستطيع الإنسان من خلالها الكشف عن الظواهر الطبيعية المادية والروحية والدلائل الموضوعية الدالة على قدرة الله عز وجل: كالعلم والمعرفة والإبداع والحرية والعدل في الحكم والاستقامة.

ويقوم الجدل في القرآن الكريم على طرفين نقيضين هما: المماثلة والتناقض، أي من العام إلى الخاص ثم إلى الأكثر خصوصية. وقد ذكر كثير من المفسرين أن الجدل في القرآن الكريم ينشأ حسب طبيعة العقل المتناقضة. وهنا يحتم على المرء أن يكون له قدرة في تمييز الأشياء، فاستواء العالم المشاهد دليل على قدرة الله عز وجل في ملكوته رداً على الذين يقولون بحتمية التطور، ونسبة الجدل إلى المادة، وأن الصدفة هي التي أوجدت الطبيعة. ومن هنا فإن اختلاف العلماء حول مفهوم الجدل ليس الإنكار وإنما للتمييز بين المحمود والمذموم، فالمحمود هو ما توافرت فيه الشروط التالية:

* أن تكون غايته إظهار الحق، وإبطال الباطل.

* أن يكون هدفه التركيز على نقاط الالتقاء.

* أن يكون دليhle من الأدلة المعتمدة من الكتاب والسنة.

وعلى ما سلف أخلص إلى الآتي:

[1] الجدل هو تردد الكلام بين خصمين يقصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول

صاحبه، ومنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

[2] الجدل ليس ظاهرة جديدة كما تدعي الفلاسفة.

- [3] من أسباب انتشار الجدل: انتشار مجالس الفُصَّاص، ومهاجمة اليهود والنصارى والدهريين وغيرهم للدين الإسلامي.
- [4] يُشترط في الجدل والمناظرة قبول العمل والإخلاص والمتابعة.
- [5] للجدل أربع حالات لا يخرج منها وهي: الجدل لإحقاق الحق، والجدل لإبطال الباطل، والجدل بالحق للباطل، والجدل بالباطل للحق.
- [6] الجدل منه ما هو محمود، وما هو مذموم، فإن رجحت فيه المصلحة كان محموداً، وإن رجحت فيه المفسدة كان مذموماً.
- [7] صور المجادلة: الطعن في كلام الغير من حيث اللفظ، والمعنى، والقصد؛ وكلها مذمومة.
- [8] جاء ذم الجدل في القرآن والسنة وأثار السلف.
- [9] الآثار السيئة للجدل كثيرة، منها: الضلالة بعد الهدى، وضعف الإيمان، وإحباط الأعمال، وقسوة القلب وضياع الكرامة، والإثم، وشغل القلب، والاختلاف والفرقة والشك والتلبيس على الناس.
- [10] من آداب المناظرة أن يكون المناظر ملماً بالمسألة التي يناظر فيها، مع ضبط النفس وعدم الانفعال، والمبادرة إلى الرجوع عند ظهور الحق مع صاحبه، وعدم التشهير بالخصم عند غلبته، وإغلاق باب المناظرة إذا رأى من الطرف الآخر عناداً وتعنتاً قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة البقرة: 286.

المصادر والمراجع

- [1] ابن كثير (1982). تفسير القرآن العظيم. دار المعرفة، بيروت، ط2.
- [2] ابن منظور (1994م). لسان العرب. دار صادر بيروت، ج11 ط2.
- [3] أبو بكر الرازي، محمد (1950م). المصباح المنير. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
- [4] أبوزهرة، محمد (1980م). تاريخ الجدل. دار الفكر العربي، القاهرة، ط1.
- [5] الأصفهاني، راغب (1961م). المفردات في غريب القرآن. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2.
- [6] الألمعي، زاهر عوض (ب.ت). مناهج الجدل في القرآن الكريم. مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة، ط1.
- [7] البهي، محمد (1964م). الفكر الإسلامي الحديث. مكتبة وهبة، القاهرة، ط1.
- [8] الجرجاني، علي بن محمد (1998م). التعريفات. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1.
- [9] الجزائري، أبوبكر جابر (1403هـ). العلم والعلماء. دار الكتب السلفية، القاهرة، ط1.
- [10] الزاوي، الطاهر أحمد (1989م). مختار القاموس. دار الكتب العربية، القاهرة، ط1.
- [11] الزمخشري، جارالله محمود بن عمر (ب.ت). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1.
- [12] الصابوني، محمد علي (1981م) صفة التفاسير. دار القرآن الكريم، الرياض، ج3، ط2.
- [13] الطبري، أبو جعفر (1968م) جامع البيان في تأويل آية القرآن. مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة، ط3.

- [14] الطويل، توفيق (1945). تاريخ الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى. دار العلم، بيروت، ط2.
- [15] القرطبي (د ت). الجامع لأحكام القرآن الكريم. تحقيق عبدالرازق المهدي، دار الحيل، بيروت، ط2
- [16] بشير إمام، زكريا (2003م). مفهوم العدالة بين الفكر الإسلامي والغربي. دار روائع للنشر الأردن، عمان، ط1.
- [17] حوى، سعيد (1979م) الإسلام. دار مكتبة الحياة، القاهرة، ط2.
- [18] رحمة الله، محمد الماحي (2005م). جدلية العقل والمادة، دار نشر الخرطوم، الخرطوم، ط1.
- [19] فهمي، سمية أحمد (1975م). الأسس النفسية للاتجاه الديني. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1.
- [20] كحيل، عبد الوهاب (1985م). الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي. عالم الكتب للنشر، القاهرة، ط1.
- [21] مهروال، عبد السلام (د ت). المنهج القرآني في جدل الاستدلال. دار العلم، بيروت، ط1.